

عاد بعدها إلى (مكة) ينشد الأشعار ويتحدث في الأدب والأخبار وأيام العرب بفصاحة وراءها ذكاء وقاد وقدرة نادرة على الحفظ والاستيعاب، فقد جمع شعر الهذليين واختص به وحفظه أضافة إلى ما كان يحفظه من شعر سائر العرب وخطبهم وصور بلاغتهم، وفي مكة المكرمة حيث نشأ وعاش مع أمه مستعيناً بنوي قرابته من قریش (حفظ «الموطأ» للإمام مالك وأخذ العلم والفقہ عن أئمة الفقه والتفسير والحديث. وفي شرح شبابه قصد المدينة المنورة فأخذ الحديث النبوي الشريف على شيخ المحدثين فيها الإمام مالك، فقرأ عليه كتابه «الموطأ» حفظاً، فأشاد شيخه بالمعينة واتى عليه وتوقع له الفلاح.

وصدق مالك - طيب الله ثراه - فقد أصبح الشافعي - عطر الله تربته - أفتة أهل عصره (في كتاب الله وسنة رسوله وأبصرهم بأصول العلم والفقہ، وحجة في اللغة وأية في الأنساب والأخبار، وبلغ من المكانة في الأدب والدراية في العربية أن قرأ عليه الأصمعي أشعار الهذليين وأخذ عنه شعر (الشنفرى) ودرس عليه ديوانه، وكان فيما يأخذه من أستاذه يتعلم منه روايته وشرحه ويقتبس فصيحته وغريبه).

قصد الإمام الشافعي بغداد وافداً من مكة المكرمة ثلاث مرات أولها سنة ١٨٥هـ ثم عاد إليها سنة ١٩٥هـ فمكث في العراق سنتين جلس خلالها إلى علماء بغداد وجلسوا إليه وعاد إلى ديار أهله سنة ١٩٧هـ، وفي سنة ١٩٨ زار بغداد للمرة الثالثة، وخلال إقامته التف حول له علماءها يأخذون عنه وفيهم الأمام أحمد بن حنبل.. وفي بغداد ألف كتابه المشهور (الحجة).. ثم رحل بعد ذلك إلى مصر عام ١٩٩هـ فكانت له دار إقامة. وفي جامع عمرو بن العاص بالقسطنطين كانت له حلقة كبيرة يلقي فيها محاضراته في الفقه وأصوله وفي